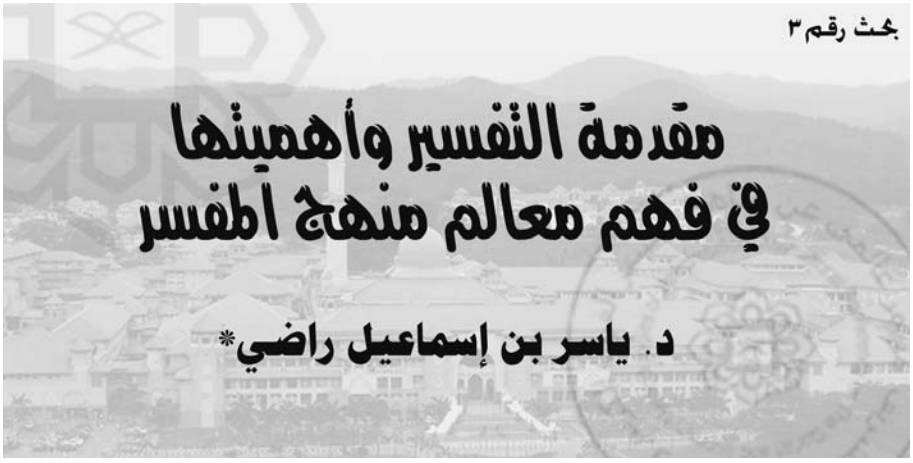

مقدِّمة أي مصَّنف: هي ما يخطّهُ المؤلف بقلمه ابتداءً في مطلع كتابه،كمدخل فكري ووصف منهجي لموضوع الكتاب ومحتواه. لذا تُعدُّ كتابة المقدِّمة من أهم عناصر البحث العلمي السليم، ومن صلب المنهجية المتَّبعة في التأليف، فالمقدِّمة ترسم صورة هيكلية شاملة لموضوع الكتاب ومقاصده. (وتشّتد الحاجة إلى المقدِّمة إذا كان الكتاب زاخراً بالأفكار والنظريات والمعارف،كما ينبغي أن تكون ملائمة لمضمون الكتاب، وإذا قيل: عنوان الكتاب كاشف عن مضمونه، رغم أن العنوان كلمة أو بضع كلمات، فما قولك في مقدِّمة صيغت بعناية فائقة بقلم المؤلِّف، وتقع في صفحة أو صفحات؟ وقد تسرد فيها الأبواب والفصول والفِقَر؟

هذا وإن مقدِّمات الكتب تتفاوت قيمة وأهميَّة، طولاً وقصراً، إيجازاً وإطناباً، بلاغة وركاكة، ولكل حالة لبوسها، غير أنها – بوجه عام – تمهيد للكتاب وتوطئة لما فيه، توضح أهداف المصنِّف وغاياته، وتكشف عن عقله ومشاربه، وعن أسلوبه وطريقته ومخططه، وتنير سبل فهم الكتاب، وتقرِّبُه لأذهان القرّاء وعقولهم، وتسّهل الانتفاع به، وتجلب إلى القارئ واحة الفكر والمتعة وتبيّن الجو الذي ولد فيه هذا الكتاب، وكيف تمخض الفكر، فضلاً عن أنها قد تكون وسيلة لطرح نظرية معيّنة أو منهج علمي ما، في علم بعينه، أو في فن بعينه، فهذه مقدِّمة في النحو، وتلك مقدِّمة في الأدب، وهاتيك في التاريخ، وهلمَّ جرّاً.

إن كتابة المقدِّمات فن قائم بذاته، وله أصوله وقواعده، وهو فن يستحق الدراسة والتأمل، وهذه

* الأستاذ المساعد بقسم دراسات القرآن والسنة، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

المقدِّمات تعرض لنا مناهج المصنِّفين في تصانيفهم، والمنهج – بالطبع – ركيزة التأليف ورأسه)[1].

لقد جرت عادة علماء المسلمين منذ القديم أن يُصدّروا مؤلفاتهم بمقدِّمة أو تمهيد، لما علموا من أهميتها قبل الشروع في أصل الكتاب وفصوله، بل كانت مقدِّمات بعضهم علماً قائماً بذاته، ككتاب (مقدِّمة ابن خلدون) لعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٩هـ) الذي وضعه توطئة وتمهيداً لكتابه الكبير في التاريخ (ديوان المبتدأ والخبر)[2]. وقد أقبل عليه الباحثون بالنظر والتحليل والدراسة حيث عدّوه أساساً لنظريات كثيرة في علم الاجتماع البشري[3].

وكذا نجد (مقدِّمة الجزَّرية) للإمام محمد ابن الجزري (ت٨٣٣هـ). عبارة عن أرجوزة لطيفة تناولت قواعد التجويد في أبيات شعرية ميسَّرة،[4] عكف عليها كثير من طلبة العلم حفظاً وفهماً.

ومن أوضح المقدِّمات العظيمة في هذا الباب: كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للإمام جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ) وقد ذكر في خاتمته أنه مقدِّمة لتفسيره الكبير (مجمع البحرين ومطلع البدرين)[5]. فكان (الإتقان) من أهم وأوائل المصادر والمراجع الذي لا يستغني عنها طالب علم أو عالم في مجال الدراسات القرآنية، فهو كتاب أساس في مباحث علوم القرآن الكريم وأصول التفسير ومناهجه. ولو نقبّنا في تراثنا الإسلامي الذاخر لوجدنا الكثير من هذه المقدِّمات التي تُعد علماً قائماً بذاته.

إن هذه المنهجية التي عرفت عند علماء المسلمين لهي أعظم دليل على قِدم السَّبق لهم دون غيرهم في تأسيس علم مناهج البحث العلمي، فقد اشترط علماء المناهج اليوم أن لا يخلو كتاب أو

---

١ انظر: **مناهج التأليف عند العرب**، محمد المصري، (جدة: دار المنارة، ط١، ١٩٩٠م)، ص ١٠-١٢.

٢ واسم الكتاب بالكامل **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ويسمى (تاريخ ابن خلدون)، ضبط المتن والحواشي والفهارس: الأستاذ شحادة، مراجعة د. زكار، ويقع في ثماني مجلدات، انظر طبعة: (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٨١م).

٣ انظر: **علم الاجتماع والمجتمع الإسلامي**، د. مصطفى شاهين، (د.ن، د.ط، ١٩٩١م).، ص١٦.

٤ تبدأ بقول المؤلف : يقولُ راجي عَفوِ ربٍ سامعِ محمَّـد بن الجزّريِّ الشَّـافعي
وتنتهي بقوله : والحمد للهِ لهـا ختـام ثم الصَّـلاةُ بعدُ والسَّـلامُ
على النَّبي المصطفى وآلـهِ وصحبهِ وتـابعي منوالـهِ
أبياتُها قافٌ وزايٌ بالعـدد منْ يُتقِنِ التَّجويدَ يظفرْ بالرَّشَد

وتبلغ أبياتها مائة وثمانية بيت. انظر كتاب: **المنح الإلهية شرح مقدِّمة الجزرية**، إعداد وترتيب: هاني بن محمد القاضي، (جدة: دار المجتمع، ط١، ٢٠٠١م)، ص ٤.

٥ هذا التفسير مفقود. انظر: **الإتقان**، السيوطي، ١٩٠/٢.

رسالة علميَّة من مقدِّمة أولية، تتوفر فيها عدّة عناصر، أهمها: (بيان أهمية الموضوع، ومشكلة البحث وأهدافه، والمنهج الذي استخدمه الكاتب، والصعوبات التي واجهها، وكيفية التغلب عليها، وكذا الإشارة إلى أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها... وما إلى ذلك مما يخدم البحث العلمي)[1]، وكانت أكثر مقدمات التفاسير قد توفرت فيها هذه العناصر وزيادة، فمن هذا المنطلق تتبيَّن لنا أهمية دراسة هذه المقدِّمات والتي سيجد فيها الباحث الكريم بغيته في فهم معالم كثيرة حول منهج المفَسِّر وطريقته، ومصادر تفسيره، ومعاناة التأليف وتاريخ التدوين...إلخ. يقول الإمام ابن عطية في مقدمة تفسيره: "ولنقدم بين يدي القول في التفسير أشياءَ قد قدَّم أكثرها المفسرون، وأشياءَ ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم، مجتمعة لذهنه"[2] والناظر المحَقِّق في المكتبة القرآنية يجد أن ما طبع من كتب التفاسير فقط قد تجاوز (٢٥٠) تفسيراً[3]، ومعظمها قد حوى مقدمات بأقلام أصحابها إلا إننا نجد أن هذه المقدمات متفاوتة في الحجم، متباينة في المضمون، فليست كلها على درجة واحدة، فمنها المطول[4]، ومنها المتوسط[5] ومنها المختصر[6] ومنها المختصر جداً وهي قليلة[7]، ومن التَّفاسير ما خلت من مقدِّمات أصلاً! وهي نادرة محدودة[8].

عناصر مقدمات كتب التفسير: وضمن قراءة استقرائيّة لكثير من مقدِّمات كتب التفسير

---

١ انظر: **كتابة البحث العلمي**، د. عبد الوهاب أبو سليمان، (جدة: دار الشروق، ط٢، ١٩٨٣م)، ص٨٣.

٢ انظر تفسيره: **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق وتعليق: الرحالي الفاروقي وجماعة، طبعة (أمير دولة قطر: صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ط١، ١٩٧٧م)، ١٢/١.

٣ انظر بحثنا المعنون: **التفاسير المطبوعة منذ القرن الهجري الأول وحتى العصر الحديث**، المقدم لمركز البحوث في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، بتاريخ ٢٠٠٥/٩/٣٠م. وهو مُعَدٌّ للنشر.

٤ كمقدِّمة تفسير (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، للإمام ابن عطية، ومقدِّمة تفسير (الجامع لأحكام القرآن)، لأبي عبد الله القرطبي، ومقدِّمة تفسير (محاسن التأويل)، لمحمد جمال الدين القاسمي، ومقدِّمة تفسير (التحرير والتنوير)، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ومقدِّمة تفسير (حدائق الروح والريحان)، للشيخ محمد الأمين العلوي.

٥ كمقدِّمة تفسير (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، للنيسابوري، ومقدِّمة تفسير (التسهيل لعلوم التنـــزيل)، للإمام ابن جزي، ومقدِّمة تفسير (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، للبقاعي، ومقدِّمة تفسير (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، للشنقيطي، ومقدِّمة (التفسير الحديث)، لمحمد عزة دروزة.

٦ كمقدِّمة تفسير (بحر العلوم)، لأبي الليث السمرقندي، ومقدِّمة تفسير (لطائف الإشارات)، للإمام عبد الكريم القشيري، ومقدِّمة تفسير (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)، لأحمد السمين، ومقدِّمة (التفسير الواضح)، محمد محمود حجازي، ومقدِّمة كتاب (أيسر التَّفاسير)، عامر أحمد الشريف.

٧ كمقدِّمة تفسير (مفاتيح الغيب)، للإمام فخر الدين الرازي، ومقدِّمة تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، [7] للإمام السيوطي، ومقدِّمة تفسير (تاج التَّفاسير لكلام الملك الكبير) ، لمحمد عثمان الميرغني، ومقدِّمة تفسير (مراح لبيد لكشف معنى قرآن)، للعلامة محمد الجاوي.

٨ كتفسير (معاني القرآن)، لأبي زكريا يحيى بن زياد الفرّاء، تفسير (المقتطف من عيون التَّفاسير)، للشيخ مصطفى المنصوري.

المطبوعة – القديم منها والحديث– فقد رأيتها تدور في فلك العناصر التالية والتي تُعّدُ في غاية الأهمية في حقل دراسة المفَسِّر ومنهجه وكتابه:

- ***بيان سبب التأليف والباعث على الكتابة.***
- بيان أهم مصادر التفسير المعتمدة في جمع المادة.
- ذكر منهج المفَسِّر وطريقته في التأليف.
- إثبات تسمية الكتاب وبيان نسبته للمؤلف.
- وصف عام للكتاب و موضوعاته.
- الاهتمام بمباحث علوم القرآن.
- أمور أخرى متفرقة: كمعرفة تاريخ تدوين التفسير والظروف المصاحبة له، وإلحاق بعض التقاريظ بالمقدِّمة ... وما إلى ذلك.

أولاً: بيان سبب التأليف والباعث على الكتابة:

يقول الوزير خير الدين التونسي (١٣٠٨هـ): "لما كان السبب الحامل على الشيء متقدماً عليه طبعاً، ناسب أن نقدمه وضعاً"[١]. فالسبب هو الدافع الحقيقي الأول للكتابة ، وهذه نقطة منهجية تعكس لنا جانباً هامّاً، ومؤشراً معبراً عن قصد المفَسِّر وهدفه الذي يرمي إليه من الكتابة، ومن ثمَّ فهي تخدم الباحث والقارئ وتساعده على فهم منهج المفَسِّر العام في التفسير، وتيسر له عملية التقويم والتقييم في دراسته. وتتباين مقاصد المفسرين في تدوين هذا الكم الهائل من كتب التفسير، ما بين سبب عام، أو خاص، أو دعوي، أوسبب عقدي.

(١) السبب العام:

وهو ما يجمع فيه المفَسِّر حصيلة علمه، وزبدة معرفته، وخلاصة فكره في شرح وبيان آيات القرآن الكريم، طلباً للأجر والثواب، واقتداءً بالركب الأول وخلوداً للأجيال القادمة، وهذا ما عليه أكثر المفَسِّرين، فعلى سبيل المثال نرى القاضي البيضاوي يقول في مقدِّمة تفسيره: "ولطالما أحدث نفسي أن أصنِّف في هذا الفن كتاباً يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوي على نكتٍ بارعة ولطائف رائعة. أ. هـ." [٢]وبمثله قال

[١] انظر: كتابه **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، (الدار التونسية للنشر، د.ط، د.ت)، ص ٨٩.

[٢] انظر: تفسيره **أنوار التنْزيل**، ٢/١.

العلاَّمة أحمد السمين عن تفسيره (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون): "وهذا التصنيف في الحقيقة نتيجة عمري وذخيرة دهري، فإنه لُّب كلام أهل هذه العلوم." [1]

(٢) السبب الخاص:

يتفرع من سابقه وهو أكثر خصوصيَّة منه، إذ يهدف مؤلفه فيه إلى طابعٍ معين، ولونٍ مميزٍ، يعالج فيه موضوعاً واحداً يعطيه حقه ومستحقه فيكون هو المهيمن على غيره من العلوم. وبهذا المفهوم قد نطلق عليه مصطلح التفسير الموضوعي، الذي يرجع في نشأته إلى عصر التدوين ثم تطور بعد ذلك حتى أصبح علماً معتبراً له أسسه وقواعده في عصرنا الحاضر. ومن أمثلة ذلك:

- التفسير اللغوي: لمفردات القرآن الكريم وإعرابه، حيث يتم التركيز على هذا الجانب دون غيره. ومثاله: كتاب (غريب القرآن وتفسيره)، لأبي عبد الرحمن اليزيدي (٢٣٧هـ)، و(غريب القرآن)، لأبي محمد عبد الله بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، وغيرهما كثير[2].
- التفسير الفقهي: حيث يشمل بالتحليل والدراسة ما يختص بآيات الأحكام الفقهية بالدرجة الأولى، وقد كتب فيه خلق كثير سواء في مذهب فقهي بعينه أو المذاهب عامة. ومثاله: كتاب (أحكام القرآن)، لأبي بكر الجصاص (ت ٣٧٠هـ) على المذهب الحنفي. و(أحكام القرآن)، لعماد الدين الكيا الهراسي (ت ٥٠٤هـ) على المذهب الشافعي. و(أحكام القرآن)، لأبي بكر بن العربي(ت٥٤٣هـ) على المذهب المالكي. و(الجامع لأحكام القرآن)، للإمام القرطبي (ت ٦٧١هـ) في المذاهب عامة والمذهب المالكي خاصة. وغيرها من نماذج.

ومن التفسير الموضوعي: ما قام به الإمام برهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥هـ) من الاهتمام بعلم المناسبات بين السور والآيات في كتابه (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)[3]. وفي العصر الحديث: التفسير العلمي، كتفسير (الجواهر في تفسير القرآن الكريم)، لطنطاوي جوهري (ت١٣٥٨هـ). والتفسير الأدبي، ككتاب (التفسير البياني للقرآن الكريم)، لعائشة عبد الرحمن – بنت الشاطئ – (ت ١٤١٩هـ)، وغير ذلك. ونبقى مع بعض هؤلاء المفَسِّرين يحدثوننا عن مقصدهم الخاص من التأليف.

فالإمام الفقيه الكيا الهراسي يوضّح مقصده في تقرير المذهب الشافعي الذي يتمذهب به وكان سبباً لتأليف كتابه (أحكام القرآن) حيث يقول: "فإني لما تأملت مذاهب القدماء المعتبرين، والعلماء

---

[1] انظر **تفسيره المذكور**، ٦/١.

[2] وكذا مما هو مشهور في هذا الباب كتاب **معاني القرآن**، أبو زكريا الفرّاء (ت٢٠٧هـ). و**معاني الكلمات وإعرابه**، للزّجاج (ت٣١١هـ)، و**مفردات ألفاظ القرآن**، للراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ).

[3] راجع مقدِّمة تفسيره فإنه يذكر مقصده من التأليف وأنه عِلمٌ لم يسبق إليه، ٢/١.

المتقدمين والمتأخرين، مذاهبهم وآراءَهم، ولحظت مطالبهم وأبحاثهم، رأيت مذهب الشافعي ﷺ وأرضاه، أسدَّها وأقومها، وأرشدها وأحكمها ...، ولما رأينا الأمر كذلك، أردت أن أصنف في أحكام القرآن كتاباً أشرح فيه ما أنتزعه الشافعي ﷺ من أخذ الدلائل في غوامض المسائل، وضممت إليه ما نسجته على منواله، واحتذيت فيه على مثاله، على قدر طاقتي وجهدي"[1].

أما الشيخ طنطاوي جوهري الذي كان جُلُّ اهتمامه بالعلوم والمنجزات العلميَّة في الكون، والفلك، والأرض، والإنسان، والحيوان، والنبات، فقد كان مغرماً بهذا النوع من العلم. يقول في مقدمته: "ولقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم: من الأحكام والأخلاق، وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق؛ مما يشوّق المسلمين والمسلمات إلى الوقوف على حقائق معاني الآيات البينات في الحيوان والنبات والأرض والسماوات"[2].

(٣) السبب الدعوي:

وهذا غالباً ما تحكمه الحاجة والضرورة الناتجة عن سبب ما، و أمر مستحدثٍ يراه المفَسِّر في عصره ويتطلبه زمانه. وله وجوه عديدة، منها:

أ- ما قد يكون السبب نزولاً عند رغبة السائلين وإجابة لطلبهم من طلاب العلم أو غيرهم. ومثاله: ما ذكره الإمام أبو محمد البغوي في مقدِّمة تفسيره بقوله: "فسألني جماعة من أصحابي المخلصين، وعلى اقتباس العلم مقبلين: كتاباً في معالم التنْزيل وتفسيره، فأجبتهم إليه، معتمداً على فضل الله تعالى وتيسيره، ممتثلاً وصية رسول الله ﷺ فيهم فيما يرويه أبو سعيد الخدري ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام قال: "إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً"[3]، واقتداءً بالماضين من السلف في تدوين العلم إبقاء على الخلف، وليس على ما فعلوه مزيد ولكن لابد في كل زمن من تجديد ما طال به العهد، وقصر للطالبين فيه الجد والجهد تنبيهاً للمتوقفين وتحريضاً للمتثبطين"[4].

ب- وقد يكون السبب اختصار ما هو طويل، وتيسير ما هو عسير، وتقريب ما هو بعيد، بسبب صعوبة تناول الناس للتفاسير الضخام والمطولات، وهذا ما نلمسه في مجموعة من

---

[1] انظر: **أحكام القرآن**، الكيا الهراسي، ١/٢٠.

٢ انظر: **تفسيرالجواهر**، طبعة (مصر: مصطفى البابي، ط٢، 1350هـ)، ١/٣.

[3] رواه الترمذي، كتاب العلم، برقم (٢٦٥٠)، ٥/٣٠. قال الشيخ الألباني: ضعيف، انظر: **ضعيف الترمذي**، ١/٣١٥.

[4] انظر: تفسيره **معالم التنْزيل**، ١/٣٤. وكذا انظر في هذا الشأن كل من: **مدارك التنْزيل**، للنسفي، ١/٢. **غرائب التنْزيل**، للنيسابوري، ١/٧. **مقدمة صفوة البيان لمعاني القرآن**، للشيخ حسين محمد مخلوف، (الكويت: وزارة المعارف والشؤون الإسلامية، ط٣، ١٩٨٧م)، ص (هـ).

التفاسير القديمة والحديثة. ومثاله:

■ كتاب (التسهيل لعلوم التنْزيل) للإمام محمد بن جزي (ت ٧٤١هـ)، ذكر المصنف في مقدمته أن هدفه الأول من تفسيره أنه جمع فيه كثيراً من العلم في كتاب صغير الحجم، تسهيلاً على الطالبين، وتقريباً على الراغبين[١].

■ (مختصر من تفسير الإمام الطبري)[٢] لابن صمادح التجيبي (ت٤١٩هـ)، قصد فيه المصنف في الدرجة الأولى أن يكون سهلاً قريباً إلى معرفة عامة الناس، يفهمه العالم والمتعلم.

■ ومن التَّفاسير المعاصرة كتاب (زبدة التفسير من فتح القدير)[٣] للدكتور محمد سليمان الأشقر، وهو مختصر من تفسير الإمام الشوكاني. يقول المؤلف: "وقد عنّ لي أن الذي يصرف عامة الناس عن تفسيره، طول باعه في التحليلات اللغوية، وطول نفَسِه في مناقشة الأقوال غير المرضية، وفي توجيه القراءات المختلفة القرآنية، وقد أردت خدمة الكتاب العزيز باختصار تفسيره هذا، لتقريب النفع به لعامة المسلمين."[٤] وقد طبع هذا التفسير بهامش القرآن الكريم ليكون سهل المنال وعوناً للقارئ على فهم وتدبر آيات الرحمن.

وصورة مقابلة لعملية الاختصار والاقتصار فإن هناك ما يعرف بالحواشي على المختصرات أو بعض التَّفاسير الطوال. وأشهر تفسير نقدمه أنموذجاً هو (تفسير الجلالين)[٥] للإمامين الجليلين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلى (ت٨٦٤هـ)، وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)[٦]. حيث قام نفرٌ من العلماء بشرحه والحاشية عليه، منهم: الشيخ سليمان الجمل (ت١٢٠٤هـ) في كتابه (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية)[٧] ويسمى (حاشية الجمل على الجلالين). وكذا شرحه

---

[١] انظر: **التسهيل**، ابن جزي، ٣/١. وكذا راجع في هذا الشأن كتاب **تاج التَّفاسير**، للميرغني، ٣/١.

[٢] حققه وعلق عليه: محمد حسن أبو العزم الزفيتي، طبعة (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م)، في مجلدين. وفيما بعد طبع هذا المختصر بهامش القرآن الكريم، طبعته (دار الشروق)، تحت عنوان: **مصحف الشروق المفسِّر الميسر**.

[٣] طبعة (دمشق: مكتبة دار الفيحاء؛ الرياض: مكتبة دار السلام، ط٥، ١٩٩٤م) بهامش القرآن الكريم.

[٤] انظر: **زبدة التفسير**، د. محمد الأشقر، ص١. ومن التَّفاسير المعاصرة كذلك في هذا الباب:

- **مختصر تفسير ابن كثير**، للشيخ محمد علي الصابوني، (بيروت: دار القرآن الكريم، ط٧، ١٩٨٧م).
- **مختار تفسير القرطبي**، توفيق الحكيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 1977م).
- **التفسير الوجيز**، د. وهبه الزحيلي، (دمشق: دار الفكر، ط٢، ١٤١٦هـ).

[٥] طبعة (مصر: مصطفى البابي وأولاده، د.ط، ١٣٤٢هـ).

[٦] وقد فسر الإمام المحلّيّ سورة الفاتحة، ثم من سورة الكهف وحتى الناس، ثم أكمل وأتم السيوطي من سورة البقرة إلى الإسراء، بطلب من الراغبين كما ذكره السيوطي في مقدِّمة التفسير. انظر: **تفسير الجلالين**، المحلى والسيوطي، ص٢.

[٧] انظر: طبعة (بيروت: دار إحياء التراث، د.ط، د.ت).

الشيخ أحمد الصاوي (١٢٤١هـ) في كتابه (حاشية العلاَّمة الصاوي على تفسير الجلالين)[١،٢].

ج- وقد يأخذ السبب الدعوي وجهاً آخراً مغايراً لما سبق، يتضح في مفهوم التجديد والتصفية الشاملة لكثير من الموضوعات التي علقت بكتب التَّفاسير القديمة ولا فائدة ترجى منها، كالاستدلال بالأحاديث الضعيفة الواهية، والموضوعات المكذوبة، ودسائس الروايات الإسرائيلية، والخوض في المسائل الفلسفية والنَّزعات الفقهية والمذهبية العقائدية...إلخ. وهذا القسم كثيراً ما نجده في التَّفاسير المعاصرة على اختلاف ألوانها ومناهجها. والشواهد على ذلك كثيرة، نختار منها: كتاب (الموجز في تفسير القرآن الكريم)[٣] للمستشار الأستاذ محمد رشدي حمادي. يقول في مطلع مقدمته: "هذا هو (الموجز في تفسير القرآن الكريم) المصفى: الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول، وهو خلاصة التَّفاسير المجمع عليها بين المفَسِّرين من علماء الأمة الإسلامية، وقد خلا من تأويلات المذاهب الشاذة والإسرائيليات، والتفسير بالرأي التي عمرت بها كتب التَّفاسير دون مبرر... إلخ"[٤].

د- وقد ينطلق السبب الدعوي من النظر إلى حاجة العصر وملائمة ثقافته وعلومه. ومثاله: ما ذكره الإمام أبو الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ) في مقدِّمة تفسيره من حال طلاب العلم في زمانه وقد ضعفت هممهم وقصرت رغباتهم وانخفضت درجاتهم في الطلب، وهم قد سألوه إلى إيجاز كتاب في التفسير، يقرب على من تناوله، ويسهل على من تأمله، فقال: "وهذا كتاب أنا فيه نازلٌ إلى درجة أهل زماننا، تعجيلاً لمنفعتهم، وتحصيلاً للمثوبة في إفادتهم ما تمنوه طويلاً، فلم يُغنِ عنهم أحدٌ فتيلاً"[٥].

---

[١] انظر: طبعة (بيروت: دار إحياء التراث، د.ط، د.ت).

[٢] ومن أمثلة هذا الباب كذلك، ما كتب من حواشي على تفسير **أنوار التنْزيل**، للقاضي البيضاوي (ت٦٨٥هـ). أشهرها من المطبوع:

- **حاشية الشهاب** وتسمى **عناية القاضي وكفاية الراضي على شرح البيضاوي**، لأحمد بن محمد شهاب الدين (ت١٠٦٩هـ). طبعة (تركيا: المكتبة الإسلامية، د.ت).
- **حاشية القنوي على تفسير البيضاوي**، للحافظ إسماعيل بن محمد القنوي (ت١١٦٥هـ). طبعة: (بيرت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١م).
- **حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي**، لعبد الله حلمي يوسف زاده (ت١١٦٧هـ)، طبعة (تركيا: المكتبة الإسلامية، د.ت).

[٣] طبعة (مصر: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت).

[٤] انظر: تفسيره **الموجز**، ٣/١. وانظر في هذا الباب كذلك كلٌ من:

- **التفسير المنير**، د. وهبه الزحيلي، (بيروت: دار الفكر المعاصر؛ دمشق: دار الفكر، ط١، 1991م).
- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**، د. محمد سيِّد طنطاوي، (د.ن، ط٣، ١٩٨٧م).
- **المنتخب في تفسير القرآن الكريم**، لجنة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (القاهرة: مطبعة المجلس، د.ط، ١٩٦٨م).

[٥] انظر: تفسيره **الوجيز**، ٨٧/١.

ومن المفَسِّرين المعاصرين يقول سماحة الشيخ محمد المكي الناصري (ت١٩٩٤م): "أما الأسلوب الذي اخترته لإملاء هذه الأحاديث - أي التفسير - فهو أسلوب مبسط وسط يفهمه الأُمي ويرتاح إليه المتعلم..، ويتحدث إلى أهل العصر بلغة العصر، ويضع نفسه في جو المشاكل التي يتخبط فيها هذا العصر، وفي نفس المستوى الثقافي للعصر"[١].

(٤) السبب العقدي الطائفي:

ونقصد به ما يصبو إليه المفَسِّر من إثبات وتدوين العقيدة التي يتبنَّاها والمذهب الذي ينتمي إليه. وهذا يظهر جليّاً في تفاسير الفرق الإسلامية والطوائف العقائدية؛ أمثال: الشيعة، والمعتزلة، والإباضية، ومن على شاكلتهم. ولنضرب أمثلة من واقع حديثهم في بيان هذا المقصد:

١. كتاب (التبيان في تفسير القرآن) لشيخ الطائفة الشيعية الإثنى عشرية أبو جعفر الطوسي (ت ٥٣٨هـ)، قال في مطلع مقدمته: "أما بعد، فإن الذي حملني على الشروع في عمل هذا الكتاب أني لم أجد أحداً من أصحابنا –قديماً وحديثاً– من عمل كتاباً يحتوي على تفسير جميع القرآن، ويشتمل على فنون معانيه." [٢]

٢. تفسير (الكشاف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) لجار الله الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، قال في مقدِّمته: "ولقد رأيت إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدليّة –أي المعتزلة– الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من العجب، أفاضوا في الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أُملي عليهم الكشف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، فاستعفيت فأبوا إلاّ المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد، والذي حداني على الاستعفاء على علمي أنهم طلبوا ما الإجابة إليه عليّ واجبة. أ. هـ" [٣]

٣. من التَّفاسير الإباضية المشهورة (هيمان الزاد إلى دار المعاد)[٤] للشيخ محمد بن يوسف

---

[١] انظر: تفسيره الموسوم **التيسير في أحاديث التفسير**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٥م)، ١٠/١.

[٢] انظر: **التبيان**، الطوسي، ١/١.

[٣] انظر: طبعة (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت)، ٣/١. والدليل على أن **الكشاف** مليء بالاعتزال ما كتبه الإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الإسكندري المالكي بعنوان: **الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال**، وهو مطبوع بذيل الكشاف راجع الطبعة المذكورة.

[٤] طبعة (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، د.ط، ١٩٨٠م).

الطفيّش (ت١٩١٤م)، قال في مقدمته مقرراً عقيدته ومذهبه: "وبعد: فهذا تفسير رجل يسجني إباضي وهبي، يعتمد فيه على الله سبحانه وتعالى، ثم على ما يظهر لفكره بعد إفراغ وسعه..، يتضمن إن شاء الله الكفاية في الرد على المخالفين فيما زاغوا فيه، وإيضاح مذهب الإباضية الوهبية واعتقادهم، وذلك بحجج نقليّة وعقليّة والله أعلم"[١].

ثانياً: بيان أهم مصادر التفسير المعتمدة في جمع المادة:

مما اشتملت عليه مقدِّمات كتب التفسير بيان مصادر الدراسة والتأليف التي اعتمد عليها المفَسِّر، وقد ذكر نخبة من المفَسِّرين في مقدِّماتهم – وخاصة المعاصرين منهم– النقول المختلفة التي اعتمدوها في دراستهم واستشهاداتهم على اختلاف مجالاتها من كتب اللغة والبلاغة والمعاجم والتَّفاسير وكتب علوم القرآن وعلوم الحديث ومن ثم الفقه والسير والتاريخ وما إلى ذلك، مع الأخذ بالاعتبار أنها لا تمثل كل ما رجع إليه المفَسِّر من مصادر وإنما تعّد في طليعة المراجع وأهمها.

وتظهر فائدة هذا المبحث في الاطلاع على المصادر الأوليَّة والأساسة التي اعتمد عليها المفَسِّر في كتابه. والمفَسِّرون في ذكرهم لهذا العنصر من مناهجهم يتفاوتون منازل ودرجات! ولهم مواقف مغايرة ممّن ينقلون عنهم ويأخذون منهم ما بين ناقدٍ أو مجيز أو متأثر! ويمكن إجمال مواقفهم بصورة عامَّة في أمرين[٢]:

الأول: موقف النقل والرواية فحسب، ولا تظهر شخصية المفسِّر ممن ينقل عنه إلاّ ما ندر، ومثاله: الإمام جلال الدين السيوطي الذي اكتفى في كتابه (الدر المنثور) بالجمع والسرد للأحاديث النبويَّة الشريفة والآثار عن الصَّحابة الكرام والرواية والإسناد عنهم، مما جعل تفسيره كالوعاء الواحد الذي احتوى الصحيح والعليل والقوي والضعيف والموضوع والشاذ. و لم يظهر للسيوطي أي نقد أو تعقيب لمجموع هذه الأسانيد أو جزء منها، وكأنه– رحمه الله – قد قصد هذا من مجمل كلامه في مقدِّمة تفسيره[٣]. وترك من يأتي بعده يُمحّص ويصحح، ينتقي ويختار، فهو جامع وغيره باحث، وإلاّ فهو محدّث بارع، وحافظ

[١] انظر تفسيره نقلاً عن كتاب **تعريف الدارسين**، د. الخالدي، ص ٥٢٤.

[٢] أما فيما يختص بدراسة مفسِّر بعينه فتتضح مواقفه في صور عديدة يستخلصها الباحث بعد الدراسة والتحقيق.

[٣] انظر تفسيره المذكور، ٢/١، حيث قال: "فلما ألفت كتاب **ترجمان القرآن** وهو التَّفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ ، وتم بحمد الله في مجلدات فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها واردات رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله فلخصت منه هذا المختصر مقتصراً فيه على متن الأثر..الخ "

نقّاد، باستطاعته أن يقتصر على الصحيح والحسن دون سواهما ولكنه أحب أن يضيف للمكتبة الإسلامية ما هو جديد في التأليف، والفريد في التصنيف، وهذا ديدنه في معظم مؤلفاته[1]. وقد شهد له نفرٌ من الباحثين والعلماء بأن تفسيره –الدر المنثور– هذا، هو الكتاب الوحيد من بين كتب التَّفسير بالمأثور الذي اقتصر فيه على الروايات المأثورة و لم يخلطها بشيء من عمل الرأي والعقل والنظر، كما فعل غيره كالطبري وابن كثير وغيرهما[2]. والحق أن تفسير الإمام ابن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ) قد سبقه إلى هذا العمل في تفسيره (تفسير القرآن الكريم)، حيث اقتصر على الروايات فقط[3].

الموقف الثاني: النقد والانتقاء، والرد والاختيار. وهذا كثير في كتب التَّفسير، وقد نبالغ في الأمر إذا قلنا ما من مفسِّر عموماً إلاّ وله نظرة نقدية ودراسة تحليلية مميزة، تعدل في حكمها أو تظَلم، تصحّ في آرائها أو تسقم. ولنعرض نموذجين من أئمة رجال التَّفسير:

الأول: الإمام البيضاوي (ت٦٨٥هـ) فتفسيره (أنوار التنْزيل) ما هو إلا اختصار من تفسير (الكشاف) للزمخشري[4]، حيث يسمى أحياناً بـ(مختصر الكشاف) عند بعض كتب التراجم والتاريخ.[5] وقد ظهرت شخصية البيضاوي جليّة في تنقيح (الكشاف) والرد على أقواله، وتصحيح آرائه الاعتزالية، على لسان من ترجم له ووصف منهجه. يقول السيوطي في حاشيته (نواهد الأبكار وشواهد الأفكار) على هذا التَّفسير ما نصه: "وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخّص هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مستجاد، ومازَ[6] فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرر

---

[1] وقد ادعى السيوطي– رحمه الله– الاجتهاد وأنه المجدد على رأس المائة التاسعة، وذلك في منظومته تحفة المهتدين بأسماء المجددين و التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مئة. انظر: **دليل محفوظات السيوطي وأماكن وجودها**، إعداد: محمد إبراهيم الشيباني وأحمد سعيد الخازندار، (الكويت: منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، رقم ٥٣، ط٢، ١٩٩٥م)، ص٢٣.

[2] شهد بذلك د. محمد حسين الذهبي في **التَّفسير والمفسِّرون**، ٢٦٤/١، ومن نقل عنه – منهم: د. محمود النقراشي في كتابه **مناهج المفسِّرين**، ص٩١، و د. صلاح الخالدي في كتابه **تعريف الدارسين**، ص٢٩١.

٣ راجع التفسير، طبعة (الرياض:مكتبة نزار ومصطفى الباز، ط١، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م).

[4] لم يذكر البيضاوي في مقدمته أنه اختصر تفسيره من **الكشاف** أو أعتمد عليه أو أنه من مصادره، وكانت مقدمته مختصرة، وعُرف ذلك ممن ترجم له. فعدم بيان مصدره تعتبر نقطة سلبية في المنهج. انظر مقدِّمة تفسيره، ٢/١. وانظر: **التَّفسير والمفسِّرون**، د. الذهبي، ٣٠٩/١.

[5] انظر: **القاضي البيضاوي**، د. محمد الزحيلي، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٨٨م)، ص١٣٠.

[6] مَازَ الشيء : عزله وفرزه، وبابه باع. وكذا ميزه تمييزا فانماز و امتاز و تميز و استماز، كله بمعنى يقال: امتاز القوم إذا تميز بعضهم من بعض. وفلان يكاد يتميز من الغيظ أي يتقطع. انظر: **مختار الصحاح**، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د.ط، ١٩٩٥م)، ص٢٦٧.

مهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نضار، واشتهر اشتهار الشمس في رائعة النهار"[1].

ويقول الخوانساري[2] في (روضات الجنات) عن تَّفسير البيضاوي: "هو في الحقيقة تهذيب الكشاف وتنقيحه، واختصار ما فيه من دسائس المعتزلة وقال: فما وجد فيه من خلل في الألفاظ أصلحه، أو من خطأ في المعاني صححه، أو من تطويل في العبارة لخصّه وخلصه"[3].

النموذج الثاني: من موقف النقد والرد وإمعان الفكر في الأقوال، يظهر في شخصية العالم الجليل والمفسِّر المعاصر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، في كتابه (التحرير والتنوير). حيث استوعب أقوال كثير من المفسِّرين وآرائهم، درسها وجمعها ووقف منها موقف الناقد البصير، ثم أدلى برأيه. انظر حديثه في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَذينَ آمنُوا اذكرُوا نعمَتَ اللهِ علَيكُم إذ هَمَّ قَومٌ أَن يَبسُطُوا إلَيكُم أَيديَهُم﴾ الآية[4] حيث يقول: "وقد ذكر المفسِّرون احتمالات في تعيين القوم المذكورين في هذه الآية، والذي يبدو لي أن المراد: قوم يعرفهم المسلمون يومئذ، فيتعين أن تكون إشارة إلى وقفة مشهورة أو قريبة من تاريخ نزول هذه السورة، ولم أر فيما ذكروه ما تطمئن له النفس، والذي أحسب أنها تذكير بيوم الأحزاب لأنها تشبه قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا اذكُرُوا نعمَةَ اللهِ عَلَيكُم إذ جَاءَتكُم جُنُودٌ فَأرسَلنَا عَلَيهِم رِيحاً وَجُنُوداً لَّم تَرَوهَا﴾ الآية[5]. ويجوز أن تكون الإشارة إلى ما كان من عزم أهل مكة على الغدر بالمسلمين حين نـــزول المسلمين بالحديبية عام (صلح الحديبية) ثم عدلوا عن ذلك، ويجوز أن تكون الإشارة إلى عزم أهل خيبر وأنصارهم من غطفان وبني أسد على قتال المسلمين. وأما ما يُذكر من غير هذا مما هم به بنو النضير من قتل النبي ﷺ، وكذا ما يُذكر من أن المراد قصة الأعرابي الذي اخترط سيف رسول الله ﷺ وهو قائل في منصرفه في إحدى غزواته، فذلك لا يناسب خطاب الذين آمنوا، ولا يناسب قصة الأعرابي لأن الذي همَّ بالقتل واحد لا قوم. أ. هـ"[6] وهذا يُنبيك –أخي القارئ– أن

---

[1] انظر: **المدخل المنير**، للشيخ مخلوف، ص٤١، عن: **التَّفسير والمفسِّرون**، د. الذهبي، ج١/ص٣٠٩

[2] هو محمد باقر بن زين العابدين الموسوي الخوانساري الأصفهاني، مؤرخ، فقيه، أصولي، متكلم، وتوفي سنة (١٣١٣هـ).انظر: **معجم المؤلفين**، كحالة، ٨٧/٩.

[3] انظر: **روضات الجنات**، ص٤٥٤. عن **القاضي البيضاوي**، الزحيلي، ص١٣١.

[4] (سورة المائدة/١١).

[5] (سورة الأحزاب/٩).

[6] انظر: تفسير **التحرير والتنوير**، ابن عاشور، ١٣٧/٦. وقد قامت د. هيا ثامر العلي بدراسة جيدة لمجموع مواقف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من التَّفاسير السَّابقة له والمعاصرة لزمانه؛ الذين نقل عنهم واعتمد آرائهم في تفسيره، واختارت ستة نماذج من أهم المصادر التَّفسيرية وأكثرها شيوعاً في **التحرير والتنوير**، فراجعها. وهي رسالة دكتوراه مطبوعة بعنوان: **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير**، طبعة (الدوحة: دار الثقافة، د.ط، ١٩٩٤م). ص ٢١١، كما قام د. عبد الرحيم الزقة بدراسة جيدة لمصدرين أساسين لتفسير الإمام السمرقندي **بحر العلوم** وعنوانهما بـــ: ١.تفاسير الأثريين. ٢.تفاسير اللغويين، فانظره. مقدِّمة المحقق للتفسير، ١٢٢/١.

شخصية ابن عاشور في تعامله مع المصادر من خلال حديثه في مقدِّمة تفسيره كانت ناقدة، وهو يعيب أكثر المفسِّرين عن غياب شخصيتهم وذوقهم ممّن ينقلون عنهم، فيقول: "التَّفاسير وإن كانت كثيرة فإنك لا تجد الكثير منها إلاّ عالة على كلام سابق بحيث لا حظَّ لمؤلفه إلاّ الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل." [1] وهذا مما يدل على أن ابن عاشور اتخذ لنفسه منهجاً فريداً عن غيره.

ثالثاً: ذكر منهج المفَسِّر وطريقته:

ذكر العديد من المفَسِّرين –قديماً وحديثاً– في مقدماتهم: مناهجهم وطرقهم المتَّبعة في مصنَّفاتهم ليعلم الدارس الخط المنهجي العام الذي يسير عليه ذلك المفَسِّر في كتابه. ومثاله ما عَنْوَن له الشيخ أحمد المراغي (ت١٩٥٢هـ) لمنهجه في مقدِّمة تفسيره من قوله: (نهجنا الذي سلكناه في هذا التفسير) يقول بعده: "رأينا أن ندلي إليك أيها القارئ الكريم بالمنهج الذي اتبعناه في التأليف لتكون على بينة من أمره.." ثم سرد منهجه في نقاط.[2] وبالمقابل؛ إن أبهم المفَسِّر ذكر منهجه وطريقته فإن الأمر يزداد صعوبةً وغموضاً على الدارس مما يحتاج إلى جهد ومشقة منه أكثر لاستخلاص ذلك المنهج.[3]

وفائدة هذا المبحث تظهر في محاكمة وتقويم المنهج الذي التزمه المفَسِّر في التأليف، ومن ثَمَّ معرفة جوانب القوة أو الضعف في التزام المنهج العلمي الذي استخدمه، وذلك بعد الدراسة التحليلية المتأنية والموضوعيَّة لجّل كتابه. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

ولنبقى مع مقدِّمة أشهر مفسري القرن الثامن الهجري أو أشهر المفسرين بالمأثور، وهو

---

[1] انظر: مقدِّمة تفسيره **التحرير والتنوير**، ١/٧.

[2] انظر: مقدِّمة تفسيره **تفسير المراغي**، ١/١٦.

[3] ولعلي أشير هنا إلى جملة من المفَسِّرين ممن ذكر منهجه في المقدِّمة أو ممن سكت عنه.

فمن الذاكرين لمناهجهم: الإمام ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، والإمام النحيبي (ت٤١٩هـ)، والقشيري (ت٤٦٥هـ)، والواحدي (ت٤٦٨هـ)، والبغوي (ت٥١٦هـ)، والنيسابوري (٧٢٨هـ)، والخازن (ت٧٢٥هـ)، وابن جزي (ت٧٤١هـ)، وأبو حيان (ت٧٤٥هـ)، والسمين (ت٧٥٦هـ)، وابن كثير (ت٧٧٤هـ)، والثعالبي (ت٨٧٥هـ)، والبقاعي (ت٨٨٥هـ)، والشوكاني (ت١٢٥٠هـ)، والقنوجي (ت١٣٠٧هـ)، والقاسمي (ت١٣٣٢هـ)، والشيخ أحمد المراغي (ت١٣٧١هـ)، سعيد حوى (ت١٩٩٠م)، وبنت الشاطئ (ت ١٩٩٨م)، ودروزه (ت١٤٠٤هـ)، والجزائري (معاصر)، والصابوني في آيات الأحكام (معاصر)، والزحيلي في التفسير المنير (معاصر)، وغيرهم.

وممن سكت من المفَسِّرين عن المنهج: الطبري (ت٣١٠هـ)، والسمرقندي (ت٣٧٥هـ)، والزمخشري (ت٥٣٨هـ)، والرازي (ت٦٠٦هـ)، والبيضاوي (٦٨٥هـ)، والنسفي (ت٧١٠هـ)، والسيوطي في الدر (ت٩١١هـ)، وأبو السعود (ت٩٨٢هـ)، والبروسوي (ت١١٣٧هـ)، والميرغني (ت١٢٦٨هـ)، والآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، وكشك (ت١٤١٩هـ)، والخطيب (معاصر)، وغيرهم.راجع مقدِّمات كتبهم في مظانها.

الإمام الحافظ ابن كثير، فإن الناظر في مقدِّمة تفسيره، يرى أنه يتحدث عن مجموعة قواعد وأصول كانت تمثل منهجه في التأليف بصورة عامة وأساسة، فهذه القواعد توضح للدارس من أول وهلة في أي ألوان التفسير ومناهجه يمكن إدراج هذا التفسير. أما ما دون ذلك من نقاط منهجية تركها ابن كثير للدارس يفهما ويستخلصها بنفسه مع طول الاطلاع والقراءة والبحث والتمحيص. وتتلخص أصول تفسيره بالتالي:

١. **عمله بأحسن طرق التفسير** وهي: (تفسير القرآن بالقرآن.تفسير القرآن بالسنة.تفسير القرآن بأقوال الصحابة. تفسير القرآن بأقوال التابعين).

٢. **تفسيره القرآن بالرأي المحمود** المنضبط باللغة والشرع، وتحذيره من الرأي المذموم.

٣. **تحذيره من الروايات الإسرائيلية**[١].

وتظهر الإشكالية هنا بمدى تطبيق الحافظ ابن كثير لهذا المنهج في تفسيره؟

فالواضح بعد الدراسة والتحقيق أن الحافظ التزم بهذا المنهج في جّل تفسيره، مع بعض المآخذ التي جاءت نتيجة عن خروجه عن منهجه في موضوع الإسرائيليات ولكنها لا تمنع عموم المنهج، كما سنبينه لاحقاً:

أ- عمله بأحسن طرق التفسير، وهو في الحقيقة منهج شيخه أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، وهو ما يعرف عند جمهور العلماء بالتفسير بالمأثور، وأكثر من كتب عنه وعن منهجه صنفّه من أئمة هذا اللون من التفسير وعلى رأسهم الدكتور الذهبي حيث يقول: "تفسير ابن كثير من أشهر ما دوّن في التفسير بالمأثور، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير الطبري." [٢]

ب- **تفسيره بالرأي المحمود**، لم يكن تفسير ابن كثير خالصاً بالتفسير بالمأثور، فمن صنّفه بالمأثور كان لغلبة جانبه الأثري على الجانب النظري الاجتهادي، فاهتمام ابن كثير بدعائم التفسير بالمأثور وطرقه شغل حيزاً كبيراً جداً من تفسيره، ولكنه مع ذلك كانت له آراء واجتهادات كثيرة في مناقشة الفرق الإسلامية في تفسير آيات الاعتقاد وفي توجيه الأقوال في المسائل الفقهية وله استنباطات فقهية عديدة، وله نظرة نقدية واضحة في تمحيص وتصحيح

[١] انظر: **مقدِّمة تفسيره**، ٢٠/١.

[٢] انظر: التفسير والمفسرون، ٢٥٤.

الأسانيد والأخبار الموضوعة والضعيفة أو الروايات الإسرائيلية.[1] ولهذا السبب وذاك لا يمكننا أن نصنفه ضمن التَّفسير بالمأثور الخالص، ولا ضمن التَّفاسير بالرأي الخالص، وإنما يمكننا الجمع بينهما كما صنفه بعض العلماء[2] "

ج- **تحذيره من الإسرائيليات**، ويتضح منهجه في تفسيره بكيفيات مختلفة في تعقيبه لهذه الروايات، فتارة يحكم على بعضها بالنكارة والرد والكذب والافتراء[3]، وتارة يحكم على بعضها بالتوقف بأن لا تصدق ولا تكذب مع جواز نقلها، وغالب ما يرويه في تفسيره من هذا القبيل[4]، وأحياناً ينبه على بعض الإسرائيليات التي ذكرها بعض المفَسِّرين في كتبهم أو نسبت إلى النبي ﷺ[5]،[6]، ومع التزام الحافظ- رحمه الله- بهذا المنهج إلا أن هناك مواضع عديدة يروي فيها بعضاً من الإسرائيليات و لم يتعقبها بالتنبيه[7].

ولعل السبب في هذا كثرة هذه الروايات وغلبتها، الأمر الذي جعل الحافظ ابن كثير – رحمه الله –كما قال الشيخ أحمد شاكر (ت١٩٥٨م): "لم يستطع أن يسير على ما رسم، وغلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن فأثبت طائفة منها غير قليلة"[8].

رابعاً: إثبات تسمية الكتاب – التفسير – وبيان نسبته للمؤلف:

بيان عنوان الكتاب وذكر تسميته في المقدِّمة أمرٌ هام وضروري من المفَسِّر، وذلك كي لا ينسب الكتاب إلى غيره، أو لا يُنسب كتاب غيره إليه بالخطأ أو العمد. وقد تنبه المفَسِّرون إلى هذه النقطة، فأثبت جمعٌ غفير منهم أسماء مصنَّفاتهم في المقدِّمة وبصريح العبارة التي لا يداخلها شك،[9]

---

[1] انظر منهجه الكامل في كتاب: **منهج ابن كثير في التفسير**، د. سليمان اللاحم، (الرياض: دار المسلم، ط١، ١٩٩٩م).

[2] صنفّه د. محمود النقراشي في قائمة التفسير بالمأثور المخلوط بالرأي. انظر كتابه **مناهج المفَسِّرين**، ص ١٨٧. وصنَّفه د. صلاح الخالدي: ضمن (مدرسة التفسير الأثري النظري). انظر: كتابه: **تعريف الدارسين**، ص ٣٩٤.

[3] راجع المواضع التالية: (آية ٢١-٢٢ من سورة المائدة)، (والآيات ٩٢-٩٦ من الكهف)، (والآيات ٩٩-١١٣ من الصافات).

[4] راجع المواضع التالية: (الآية ٦٧ من سورة البقرة)، (الآية ١٤ من سورة سبأ)، (والآية ١٢٥ من سورة النساء).

[5] راجع المواضع التالية: (الآية ١٤٣ من سورة الأعراف)، (الآيات ٨٦-٩٦ من سورة الكهف).

[6] انظر: **منهج ابن كثير في التفسير**، د. اللاحم، ص ٣٤٨ وما بعدها.

[7] راجع المواضع التالية من تفسيره: (الآية ٧٨ من سورة النساء)، (الآية ١٧٥ من سورة الأعراف).

[8] انظر: **منهج ابن كثير في التفسير**، د. اللاحم، ص ٣٥٤.

[9] كابن جزي (ت٧٤١هـ) في **التسهيل**، والسمين (٧٥٦هـ) في **الدر المصون**، والمهايمي (ت٨٥٣هـ) في **تبصير الرحمن**، والثعالبي (ت٨٧٥هـ) في **الجواهر الحسان**، والسيوطي (ت٩١١هـ) في **الدر المنثور**، وأبو السعود (ت٩٨٢هـ) في **إرشاد العقل السليم**، والشوكاني (ت١٢٥٥هـ) في **فتح القدير**، و الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) في **روح المعاني**، وغيرهم كثير. انظر: مقدِّمات تفاسيرهم في مظانها.

ولم يتعرض نفر منهم لهذا الأمر لا من قريب ولا من بعيد،[1] وأصبحت نسبة الكتاب لمصنِّفه مبهمة تحتاج من الباحث التنقيب والدراسة الاستقرائية في كتب التراجم والتاريخ لإثباتها، وهذا ما حدث لمجموعة من الباحثين[2].

وفائدة هذا المبحث تظهر في مصداقيَّة البحث وتوثيق المعلومات، ونسبة العمل إلى صاحبه، فإن حدوث الخطأ في النسبة وإثبات الكتاب، ظلم لا شك لهذا العالم أو المصنِّف لأننا سنبني صورة خاطئة وأحكاماً ظالمة حول شخصيته واتجاهه وفكره وأقواله، وهو منه بريء وبعيد. فنجد مثلاً (تفسير الجلالين)، قد فسّر فيه الإمام المَحَلِيّ سورة الفاتحة ثم من سورة الكهف وحتى الناس وبعدها توفي، فجاء الإمام السيوطي بعده بست سنين وأكمل البقية من سورة البقرة وحتى الإسراء، فلو لم يذكر السيوطي ذلك في مقدِّمة التفسير لاشتبه على الناس أنه للمَحَلِيّ، خاصة وأن الأسلوب والنمط في التأليف كان متناسقاً على وتيرة واحدة، وقد ذكر السيوطي أنه أتمه على نمط المَحَلِيّ[3]. بل وتسمية التفسير بالجلالين لم يثبتها السيوطي وإنما هي مما أشتهر بين العلماء[4] وعند عامة الناس للتمييز وعدم الخلط، ولم يعرف لهذا التفسير عنوان سوى ما نفهمه من كلام السيوطي في المقدِّمة بأنه (تفسير القرآن الكريم)[5].

وفي الباب نفسه نرى أن هناك تفاسير حامت حولها علامات الاستفهام والتعجب، هل هي لأصحابها أم لغيرهم؟ كتفسير الإمام فخر الدين الرازي (مفاتيح الغيب) أو (التفسير الكبير)، فقد جاء على لسان من ترجم له أن التفسير ليس كله له بل أتمه غيره من تلاميذه! كما نقله عنهم د. الذهبي، ويذهب إلى ما ذهبوا إليه. ولكن السؤال هنا: إلى أي موضع من

---

[1] كالسمرقندي (ت ٣٧٥هـ) في **بحر العلوم**، وابن كثير (ت٧٧٤هـ) في **تفسير القرآن العظيم**، وطنطاوي جوهري (ت١٣٥٨هـ) في **الجواهر في تفسير القرآن الكريم**، وغيرهم قليل. انظر: مقدِّمات تفاسيرهم في مظانها.

[2] انظر: على سبيل المثال عناء وجهد المحقِّقَين د. إبراهيم عوضين والسيِّد عوضين في إثبات تسمية تفسير الماتريدي (ت٣٣٣هـ) **بتأويلات أهل السنة** في مقدِّمة التفسير، طبعة (القاهرة: مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ط، ١٩٧١م)، ج١،ص١٦-٢٢.

[3] قال في المقدِّمة: "هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين في تكملة تفسير القرآن الكريم إلى ألفّه الإمام العلاَّمة المحقق جلال الدين محمد بن أحمد المحلىّ الشافعي رحمه الله وتتميم ما فاته وهو من أول سورة البقرة إلى آخر الإسراء بتتمته على نمطه من ذكر ما يفهم به كلام الله تعالى..الخ". انظر: **مقدِّمة تفسير الجلالين**، ١/١.

[4] لعل أول من أطلق تفسير الجلالين هو الشيخ سليمان الجمل (ت١٢٠٤هـ) في حاشيته على الجلالين حيث سمى حاشيته **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، وكلامه يشعر بهذا، راجع مقدِّمة حاشيته، ٢/١.

[5] انظر: مقدمة **تفسير الجلالين**، المحلى والسيوطي، ١/١.

القرآن وصل الرازي في تفسيره؟ اجتهد د. الذهبي في حل المسألة ورأى بأن الرازي وصل في تفسيره إلى تفسير سورة الأنبياء ثم أتمه غيره، ولكنه في النهاية قال: "أقول هذا، وأعتقد أنه ليس حلاً حاسماً لهذا الاضطراب، وإنما هو توفيق يقوم على الظن يخطئ ويصيب." [1]، وقد ناقش د.محسن عبد الحميد هذا الاضطراب في رسالته للدكتوراه بعنوان (الرازي مفسراً) وخرج بنتيجة ختامية بأن تفسير مفاتيح الغيب جميعه للإمام الرازي وليس لغيره، واستدل على ذلك، ووافقه د. صلاح الخالدي واطمأن لهذا الاجتهاد.[2]

أقول: وسبب هذا الاضطراب والاختلاف في نسبة الكتاب لصاحبه يأتي في الدرجة الأولى بأن الإمام الرازي – رحمه الله – لم يقدّم لتفسيره بمقدِّمة شافية كافية يوضح فيها منهجه ونسبة الكتاب له وما أشبه ذلك، وإنما كانت مقدمته لا تتجاوز عدة أسطر تشمل نقطتين رئيستين: الأولى خطبة الاستفتاح بالحمد والثناء والصلاة على النبي ﷺ، وشغلت ثمانية أسطر. والنقطة الثانية: إفادته بشرح سورة الفاتحة فقط دون غيرها، وشغلت ثلاثة أسطر[3].

وكما حدث لتفسير الرازي فقد حدث كذلك لتفسير ابن عربي، وهو شيخ الصوفيَّة الأكبر محي الدين ابن عربي (ت ٦٣٨هـ)، فقد اضطربت الأقوال حول حقيقة نسبة التفسير إليه، إلى أن رجّح د. الذهبي أخيراً أن التفسير ليس له وإنما هو للكاشاني الباطني [4]، وهذا أصوب ما قرأت، والله أعلم.

خامساً: وصف عام للكتاب – التفسير – وفكرة عن موضوعه:

إن الإلمام بموضوع الكتاب وفهم المقصد والهدف الذي يصبو إليه مؤلفه يُعدُّ من أولى ركائز المنهج والتقييم العلمي لهذا الكتاب، ومن ثم يساعد في فهم الطابع العام الذي يسير عليه المؤلف. لذا لم يغفل نفرٌ من علماء التفسير أن يذكروا هذا الجانب، ويظهروه في مقدِّماتهم ويتوسعوا في بيانه، ولعل أشهر من تحدَّث وأفاض في بيان موضوع كتابه وتفسيره وأوضح هدفه هو الأستاذ سيِّد قطب – رحمه الله – في كتابه: (في ظلال القرآن).

---

[1] راجع المسألة كاملة في كتابه: **التفسير والمفَسِّرون**، د. الذهبي، ٢٩٩/١.

[2] انظر: الرسالة **الرازي مفسراً**، د. محسن عبد الحميد، ص ٥٢-٦٣، نقلاً عن كتاب: **تعريف الدارسين**، د.الخالدي، ص ٤٧٣.

[3] انظر: مقدمة تفسيره: **مفاتيح الغيب**، ١٥/١.

[4] راجع المسألة وأسباب الترجيح في كتابه: **التفسير والمفَسِّرون**، د. الذهبي، ٤٣٢/٢.

إن الناظر في مقدِّمة هذا الكتاب يلاحظ من أول وهلة أن المقدِّمة جاءت بنمط مختلف تماماً عن كل مقدِّمات التفاسير الأخرى، فسيِّد لم يذكر عنصراً من العناصر التي ذكرناها سابقاً، وإنما انفردت مقدمته بلون واحد مميّز وهو الوصف العام للجو الذي خرج فيه التفسير، وبيان الطابع الذي كان يرجوه من كتابه هذا؛ وهو معايشة القرآن واقعاً محسوساً وكياناً ملموساً في ظلال آياته وظلال معانيه وأحكامه ومعجزاته.

إن حديث سيِّد في المقدِّمة كان وصفاً لأحاسيسه وتعبيراً عن مشاعره التي عاشها في ظلال القرآن والتي حيَّ بها، وحاول أن ينظر إلى البشرية من منظار القرآن وظلاله ومعطياته، وهو بهذا يدعو البشرية للرجوع إلى الله عن طريق ظلال الآيات.

لقد اشتُهِر الكتاب عند العامّة والخاصّة بأنه تفسير للقرآن الكريم، إلاَّ أن (سيِّد) نفسه لم يصف كتابه ذلك بالتفسير، بل على العكس من ذلك فقد وصفه بمجموعة خواطر وأحاسيس في ظلال القرآن. يقول في مقدِّمة الطبعة الأولى من الظلال: "وبعد: فقد يرى فريق من قرّاء هذه الظلال: أنها لون من تفسير القرآن، وقد يرى فريق آخر: أنها عرض للمبادئ العامة كما جاء بها القرآن، وقد يرى فريق ثالث: أنها محاولة لشرح ذلك الدستور الإلهي في الحياة والمجتمع، وبيان الحكمة في ذلك الدستور... أما أنا فلم أتعمد شيئاً من هذا كله...، وما جاوزت أن أسجل خواطري وأنا أحيا في تلك الظلال.."[1].

إذن حديث سيِّد يعطينا صورة واضحة عن موضوع الكتاب وهدف مصنِّفه فيه! وكأني بسيِّد – رحمه الله – يريد أن يقول لفئة من أقرانه، ومحاكميه، ومن شن عليه القلم في زماننا وزماننا من القرّاء الكرام أو الباحثين العظام: قِفوا..وتمهلوا.. لا تتعجلوا بالحكم عليّ؟! فهذا ليس كتاب تفسير وبيان، أو مصنفاً في الدستور والأحكام، وإنما هو خواطر في زمن المحنة علّها ترقى بأمتنا الإسلامية نحو العزة والكرامة والسعادة والفلاح، وما أريد إلاَّ الإصلاح ما استطعت، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان!.

وعليه؛ فإن من الإنصاف والعدالة في دراسة فكر (سيِّد) وكتابه ألاّ نحاكمه إلى قواعد ثابتة والتي نقيس بها عامة المفَسِّرين، أو نضعه في قوالب دراسية معينة، إن لم تتوفر فيه رُفض فكره وشوّهت أهدافه ورُدَّ كتابه !! وفي النهاية كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب المقام المحمود ﷺ.

[1] نقلاً عن كتاب: **تعريف الدارسين**، د. الخالدي، ص ٦١٠.

وأنموذجٌ آخر على وصف الكتاب مما تفيده مقدمات التفاسير فهو الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ) في تفسيره (أضواء البيان) فقد وفّى الشيخ -رحمه الله - الحديث عن أنواع البيان، وكيف أن الآيات يفسر بعضها بعضاً، وهذا ما قصده من عنوان الكتاب ليعطي القارئ صورة شاملة عن موضوع الكتاب قبل الولوج في جوهره. يقول في مقدمته: "واعلم أن أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك كثيرة جداً. وقد أردنا أن نذكر في هذه الترجمة جملاً من ذلك ليعلم بها الناظر كثرة ما تضمنه هذا الكتاب المبارك من أنواع بيان القرآن بالقرآن. ويكون على بصيرة في الجملة من فائدته قبل الوقوف على جميع ما فيه. أ. هـ" [١] والذي يطالع تفسيره - رحمه الله - يظهر له براعة الشيخ وغزارة علمه في التفسير بالمأثور وأنه التزم ما رسمه لنفسه في عنوان الكتاب وموضوعه وأجزائه.[٢]

سادساً: الاهتمام بمباحث علوم القرآن.

ويقصد بها مجموعة من العلوم المتعلقة بكتاب الله تعالى يستخدمها المفسر بغية تفسيره وفهمه على الوجه المطلوب، كعلم نزول القرآن وكيفية نزوله، وأسماء القرآن وأوصافه، والناسخ والمنسوخ، وعلم المكي والمدني، وإعجاز القرآن وبلاغته، ومعرفة شروط المفَسِّر وأدواته، ومناهج التفسير وغيرها من علومٍ كثيرة. ولأهمية هذه العلوم وارتباطها بكتاب الله تعالى فقد اهتم بها علماء التفسير أيما اهتمام، وشغلت حيزاً واسعاً من مقدِّمات بعض التَّفاسير فمنهم من تناول هذه العلوم كلها في مقدمته، ومنهم من اقتصر على أهمها، فتناولها تناولاً جزئياً، وقلة منهم تركوها كليةً والناظر في مجموع مقدِّمات كتب التفسير يلمس ذلك بنفسه. فكتاب (الإتقان) للسيوطي- على سبيل المثال - جاء شاملاً وافياً لهذه العلوم، وكان كتاباً أساساً في مجالها. ومقدِّمة (تفسير القاسمي) كانت مقدِّمة عظيمة ومطولة، ولأهميتها عَنوَن لها القاسمي بعنوان يدل عليها وهو: [تمهيد خطير في قواعد التفسير]، يقول فيها: "هذا وقد حليت طليعته -أي التفسير- بتمهيد خطير، في مصطلح التفسير، وهي قواعد فائقة وفوائد شائقة، جعلتها مفتاحاً لمغلق بابه، ومسلكاً لتسهيل خوض عبابه، تعين المفَسِّر على حقائقه، وتطلعه

[١] انظر: **أضواء البيان**، الشنقيطي، ٧/١.

[٢] وكذا راجع في هذا الباب: مقدِّمة تفسير **الأساس في التفسير**، سعيد حوى، ٢١/١-٣١. ومقدِّمة **التفسير الحديث**، محمد دروزة، ٥/١.

على بعض أسراره ودقائقه.." [1]

وتظهر فائدة الاطلاع على ما دوّنه المفَسِّرون في مقدِّماتهم من مجموعة هذه المباحث أو جزء منها من جوانب ثلاثة:

١. إن بعض ما يذكره المفَسِّر من هذه العلوم في مقدِّمة تفسيره دليل على توجهه وعمله بها وسيره على نهجها في التفسير.

ومثاله ما ذكرنا من منهج الحافظ ابن كثير، فحديثه عن منهجه يصنف في حقيقة الأمر ضمن مباحث علوم القرآن، لأنه لم يذكر منهجه بصريح العبارة وإنما استُخلِص المنهج من مجموع كلامه استخلاصاً.

وكذا نجد أن الإمام الآلوسي في مقدِّمته (روح المعاني) قد أفرد مبحثاً يتضمن ما يحتاجه التفسير ومعنى التفسير بالرأي وحكم كلام السَّادة الصوفيَّة في القرآن.[2] ونراه في الحديث عن السَّادة الصوفيَّة يقرر بأن كلامهم في القرآن من باب الإشارات إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ويمكن التطبيق بينهما وبين الظواهر المرادة وذلك من كمال الإيمان ومحض العرفان، وهذا يختلف عن اعتقاد الباطنيَّة بأن الظاهر غير مراد أصلاً وإنما المراد الباطن فقط، ويأتي بالأدلة على أن لكل آية ظهراً وبطناً وغير ذلك مما يدلُّك على أن الآلوسي قد أخذ بهذا المنهج في تفسيره وطبقّه لذا نراه كثيراً جداً يلحق التفسير الإشاري بتفسيره الظاهرى المعتاد، فيقول بعدما ينتهي من تفسير بعض مقاطع الآيات: (ومن باب الإشارة كذا وكذا..).[3]

٢. التـــزود بآراء عديدة واجتهادات سديدة عن علماء التفسير في كثير من مسائل علوم القرآن، كرأي العلماء وأقوالهم في مسألة الأحرف السبعة،[4] ومسألة خلق القرآن،[5] وهل في القرآن ألفاظ أعجمية غير عربية؟[6] وحكم التفسير بالرأي وتوجيه الأدلة فيه،[7] وأسباب الخلاف بين المفَسِّرين،[8] والضابط في

---

[1] انظر: مقدِّمة تفسيره **محاسن التأويل**، ٦/١. وانظر: المقدِّمات الطويلة التي ذكرناها سابقاً.

[2] راجع تفسيره المذكور، ٥/١.

[3] انظر: تفسيره، في أي موضع كان فهو واضح.

[4] انظر: تفسير **غرائب الفرقان**، النيسابوري، ٢٤/١، و **لباب التأويل**، الخازن، ٨/١. و **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، ٤١/١.

[5] انظر: تفسير **غرائب الفرقان**، النيسابوري، ٤٩/١. و **روح المعاني**، الآلوسي، ١٠/١.

[6] انظر: تفسير **جامع البيان**، الطبري، ٣١/١. و **المحرر الوجيز**، ابن عطية، ٥٧/١. و **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، ٦٨/١.

[7] انظر: تفسير **المحرر الوجيز**، ابن عطية، ٢٨/١. و **تبصير الرحمن**، المهايمي، ٥/١.

[8] انظر: تفسير **التسهيل**، ابن جزي، ٩/١.

رواية الإسرائيليات،[1] ومسألة ترجمة القرآن،[2] وغيرها من موضوعات يجد الباحث فيها بغيته وحاجته في جمع المادة وتوثيقها.

٣. الاطلاع على مجموعة مباحث علوم القرآن يتيح للدارس معرفة المتقدم من المتأخر من الأقوال والآراء والأسانيد والتي تفيد بالضرورة عملية الأولوية في توثيق المعلومات، والترجيح بين أصحها وأقواها، فإن من الملاحظ أن كثيراً من الباحثين يُعَوِّلون في دراستهم على أهم مصدرين في علوم القرآن: كتاب (البرهان في علوم القرآن) للإمام بدر الدين الزركشي، وكتاب (الإتقان في علوم القرآن) للإمام جلال الدين السيوطي ، وهما بلا شك عمدة في هذا الباب وأساسه، لكنهما جاءَ متأخرين في القرن الثامن والعاشر الهجريين، وقبلهما جمهور من المفَسِّرين قد تعرضوا لمباحث عديدة، يكتب لهم فيها السبق في عملية التوثيق، أمثال ابن جرير الطبري الذي كان له طرق وأسانيد خاصة في رواية الأحاديث والآثار، فضلاً عن أصحاب كتب الصحاح والمسانيد والسنن، كالبخاري ومسلم والإمام أحمد،... وغيرهم ممن أفردوا أبواباً في التفسير وعلوم القرآن. فالباحث يجد ثروة علميَّة ضخمة في هذه الكتب عن علوم القرآن يعُّزز بها مادته ودراسته ويقارنها مع غيرها من الأقوال والآراء المتأخرة.

سابعاً: موضوعات أخرى متفرقة حوتها مقدمات التفاسير:

كاشتمال بعضها على مجموعة تقاريظ بأقلام المعاصرين للمفسر، أو ما نراه من ذكر بعض المفَسِّرين لتاريخ تدوين التفسير والظروف والأجواء التي صاحبت التأليف، وغير ذلك من موضوعات متفرقة يلمسها الباحث.

ويتضح المقال بضرب مثال واحد بمسألة التقاريظ الملحقة في المقدِّمة. فمن النوادر أن نجد كتاب تفسير قد صُدِّر بتقديم أو تقريظ – من أحد معاصري المفَسِّر أو تلامذته أو أقرانه – بالنظر إلى هذا الكم الهائل من مجموعة التَّفاسير التي بين أيدينا، **وتظهر أهمية هذه التقاريظ** عموماً في إضفاء القيمة العلميَّة للتفسير وبيان منْزلته وأهميته ومن ثم قبوله عند عموم الناس، أو رفضه، أو السكوت عنه. وهذه تُعدُّ نقطة لها اعتبارها في دراسة المنهج، لأنها تحسب من مميزات

[1] انظر: **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، ٢٦/١.

[2] انظر: **التفسير المنير**، د. وهبه الزحيلي، ٣٧/١.

هذا الكتاب وخصائصه أو من سلبياته والمؤاخذات عليه، لا سيما وإن كتبت هذه التقاريظ بأقلام مشاهير الأشخاص وفطاحلة العلماء. خُذ على سبيل المثال تفسير (صفوة التَّفاسير)[1] للشيخ محمد علي الصابوني، حيث ذكر أنه: (جمع بين المأثور والمعقول، وأنه – أي الكتاب – مستمد من أوثق كتب التفسير: كالطبري، والكشاف، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير، والبحر المحيط وغيرها، بأسلوب مُيَسَّر، وتنظيم حديث، مع العناية بالوجوه البيانية واللغوية)[2] وقد صدّر المؤلف كتابه بسبعة تقاريظ. وإليك أسماء من كتبها لتعرف قيمة الكتاب:

- سماحة الدكتور عبد الحليم محمود – رحمه الله – (شيخ الجامع الأزهر آنذاك)، كتبه بتاريخ ١٣٠٦/٢/٢٧هـ.
- سماحة الشيخ عبد الله بن حميد (رئيس مجلس القضاء الأعلى والرئيس العام للإشراف الديني على المسجد الحرام آنذاك)، كتبه بتاريخ ١٣٩٧/٤/٧هـ.
- سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي – رحمه الله – (رئيس ندوة العلماء بلكنو–الهند آنذاك)، كتبه بتاريخ ١٣٩٦/٤/٩هـ.
- معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف (مدير جامعة الملك عبد العزيز بجدة آنذاك)، كتبه بتاريخ ١٤٠٠/٢/١٥هـ.
- سعادة الدكتور راشد بن راجح (عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة آنذاك)، كتبه بتاريخ ١٣٩٦/١٠/١٥هـ.
- فضيلة الشيخ عبد الله خياط – رحمه الله – (خطيب المسجد الحرام آنذاك)، كتبه بتاريخ ١٣٩٥/١٠/٢٥هـ.
- فضيلة الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – (رئيس قسم الدعوة وأصول الدين بكلية الشريعة بمكة المكرمة آنذاك)، كتبه بتاريخ ١٣٩٦/٤/٦هـ.

وعلى شهرة هذا التفسير وكثرة تقاريظه إلاَّ أن الخطأ والنقص ملازم للبشر، فقد قام نفر من العلماء المعتبَرين بدراسة الكتاب وتحقيقه، فظهرت عليه مآخذ عديدة في المنهج العلمي والاعتقاد[3].

---

[1] طبعة (القاهرة: دار الصابوني، ط١، ١٩٩٧م).

[2] ذكر المنهج على الغلاف، وأستغرق تأليفه خمس سنوات، وهو في ثلاث مجلدات. انظر: **صفوة التفاسير**، الصابوني، ١/١٥.

[3] **التحذير من مختصرات محمد علي الصابوني في التفسير**، بقلم الشيخ: بكر بن عبد الله أبو زيد، (جدة: مكتبة الضياء،ط٢، ١٤١٠هـ).

والحق أن الشيخ الصابوني كان له منهج مبتكر في التنظيم والترتيب والتركيز على خلاصة الأقوال وسهولة المعاني تيسيراً لطالب العلم في عصرٍ أصبحت (السرعة والعجلة) سمة أهله، (وقصور الهمم وقلة العزائم) ديدنهم، مما أدَّى إلى شيوع هذا التفسير وانتشاره على نطاق واسع بين جمهور الناس[1]، ولو حذفت هذه المآخذ من تفسيره أوقوِّمت وضبطت لكان ذلك أفضل، فسبحان ربي الأعلى.

وكما أن لوجود هذه التقاريظ أهمية في تقييم التفسير؛ فإن في حذفها وخفائها من الكتاب بعد وجودها ما يُعد أكثر أهمية! وهذا ما وقع في تفسير الإمام الآلوسي -روح المعاني- حيث جاء في طبعته الأولى بتسعة عشر تقريظاً لأشهر علماء عصره،[2] ولكن الطبعات العديدة التي جاءت بعدها اليوم من دور النَّشر المختلفة قد خلت من هذه التقاريظ!! والسبب ما زال مبهماً !! فلعل هذه الدور لم تصلها تلك التقاريظ! أو لأجل السرعة والاختصار وعدم إدراك الحاجة إليها حذفت باجتهاد من دار النشر! أو لغير ذلك من الأسباب!! والله أعلم بالصواب.

والأمر الهام الذي يوقفنا برهة عند هذه التقاريظ متسائلين: أن أحدها - وهو التقريظ الخامس- كتب بقلم السيِّد كاظم الرشتي[3] رئيس الطائفة الكشفية من الفرقة الشيعية الإمامية وهو معاصر للآلوسي، فكيف صّدر الآلوسي كتابه بهذا التقريظ، وقد كان شديد الرد على الشيعة وعقائدهم في تفسيره؟ وكيف وافق السيِّد كاظم أن يطري ويثني على تفسيرٍ يخالف معتقده ويناصبه العداء في أفكاره[4].

كل ذلك يعطينا أهمية الاطلاع على هذه التقاريظ لتساعدنا في فهم بعض جوانب المنهج عند المفَسِّر ومكانته العلمية!! ومن ثم تقويم كتابه، والله أعلم.

الخاتمة ونتائج البحث:

الحمد لله السميع العليم، والصلاة والسلام على أشرف المعلمين وإمام المرسلين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد:

---

[1] وانظر كذلك إلى بعض التَّفاسير التي حليت ببعض التقاريظ أمثال: تفسير **محاسن التأويل**، القاسمي. **وتفسير سورة فاتحة القرآن وجزء عم الخاتم للقرآن**، للشيخ محمد محمود الصواف، (جدة: دار المنارة، ط٢، ١٩٨٧م).

[2] طبع، دار إحياء التراث العربي، مصر، وقد أعطاني هذه التقاريظ أستاذي د. محمد محروس مفتي المذهب الحنفي في بغداد وفقه الله.

[3] هو كاظم بن قاسم الحسيني الموسوي، فاضل، إمامي، من أهل (رشت) بإيران، ولد سنة (١٢١٢هـ)، وتوفي سنة (١٢٥٩هـ). من آثاره: (رسائل الرشتي) و(أصول العقائد). انظر ترجمته في: **الأعلام**، الزركلي، ٢١٥/٥. وكذا **معجم المفسرين**، عادل نويهض، ٤٤٣/١.

[4] ولعل السبب في ذلك: من باب السياسة الشرعية التي رآها الإمام الآلوسي، حيث كان المفتي العام في بغداد آنذاك. والله أعلم.

فختاماً لهذه الجولة الفكرية، والسياحة المنهجية، في ربوع مقدمات كتب التفسير المطبوعة منها على وجه الخصوص، وفي محاولة جادَّة لدراستها واستنطاق ما تحويه من معالم هامة في دراسة مناهج المفسرين، فإن ورقة البحث قد خرجت بنتائج عدة:

١- إن مقدمات كتب التفسير ليست ترفاً فكرياً، أو حشواً معلوماتياً، أو فرطاً ثقافياً؛ وإنما هي علمٌ قائمٌ بذاته وفَنٌ له أصوله وقواعده، لا يستغني عنه الباحث العلمي في مجال الدراسات القرآنية.

٢- تُعدُّ دراسة مقدمة التفسير خطوة أولية في فهم المعالم الأساسة، والخطوط العريضة لمنهج المفسر وطريقته في التفسير.

٣- إن مقدمات التفاسير تفاوتت طولاً وقصراً، وقوة وضعفاً، ومنازل ودرجات، ومعظمها كتبت بأقلام أصحابها.

٤- من أهمية مقدمات التفاسير أنها تعطي الباحث الأولوية في عملية التوثيق العلمي من آراء وأقوال العلماء المتقدمين في مجال مباحث علوم القرآن خاصة وفي الدراسات القرآنية عامة.

٥- لم تظهر دراسات جادَّة عن مقدمات كتب التفسير إلا ما ندر، وكان آخرها – في حد علمي- رسالة ماجستير مطبوعة بعنوان: علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، للدكتور محمد صفاء شيخ إبراهيم حقي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٤م).

٦- ما زالت مقدمات التفاسير تحتاج إلى مزيد اهتمام من العلماء والباحثين وطلبة العلم العاشقين لمادة مناهج المفسرين. وقد شرفني الله تعالى بجمع عدد كبير ومادة غزيرة من هذه المقدمات، والنيَّة معقودة- إن شاء الله تعالى – على دراستها وتحقيقها ثم إخراجها في موسوعة علمية.

قائمة مختارة من مراجع البحث

اعتمد البحث بصفة أساسة على مجموعة كبيرة من التفاسير المطبوعة، وعلى غيرها من المصادر، يطول المقام بذكرها، وقد بُينت في هوامش البحث، فنختار منها ما يلي:

الأعلام، خير الدين الزركلي،(بيروت: دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٨٦م). و(ط١٠، ١٩٩٢م).

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، خير الدين التونسي، (الدار التونسية للنشر، د.ط، د.ت).

تاج التَّفاسير لكلام الملك الكبير، محمد عثمان بن محمد الميرغني، (بيروت: دار الفكر، ط٢، د.ت).

تأويلات أهل السنة، د. إبراهيم عوضين والسيِّد عوضين، (القاهرة: مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د. ط، ١٩٧١م).

التفسير المنير، د. وهبه الزحيلي، (بيروت: دار الفكر المعاصر؛ دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٩١م).

التفسير الوجيز، د. وهبه الزحيلي، (دمشق: دار الفكر، ط٢، ١٤١٦هـ).

التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيِّد طنطاوي، (د.ن، ط٣، ١٩٨٧م).

تفسير سورة فاتحة القرآن وجزء عم الخاتم للقرآن، محمد محمود الصواف، (جدة: دار المنارة، ط٢، ١٩٨٧م).

الجواهر في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي جوهري، (مصر: مصطفى البابي، ط٢،١٣٥٠هـ).

حاشية الشهاب، أحمد بن محمد شهاب الدين، (تركيا: المكتبة الإسلامية، د.ت).

حاشية القنوي على تفسير البيضاوي، الحافظ إسماعيل بن محمد القنوي، (بيرت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١م).

حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، عبد الله حلمي يوسف زاده (ت١١٦٧هـ)، (تركيا: المكتبة الإسلامية، د.ت).

دليل محفوظات السيوطي وأماكن وجودها، أعده محمد إبراهيم الشيباني وأحمد سعيد الخازندار، (الكويت: منشورات مركز المخطوطات والتراث والوثائق، رقم ٥٣، ط٢، ١٩٩٥م).

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٨١م).

الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير، د. هيا ثامر العلي، (الدوحة: دار الثقافة، د.ط، ١٩٩٤م).

علم الاجتماع والمجتمع الإسلامي، د. مصطفى شاهين، (د.ن، د.ط، ١٩٩١م).

القاضي البيضاوي، د. محمد الزحيلي، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٨٨م).

كتابة البحث العلمي، د. عبد الوهاب أبو سليمان، (جدة: دار الشروق، ط٢، ١٩٨٣م).

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تحقيق: السيِّد عبد العال السيِّد إبراهيم، (قطر: مطبوعات المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ط١، ١٩٩١م).

مختار الصحاح، الرازي، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، د.ط، ١٩٩٥م).

مختار تفسير القرطبي، توفيق الحكيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٩٧٧م).

مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، (بيروت: دار القرآن الكريم، ط٧، ١٩٨٧م).

مدارك التنْزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبد الله النسفي، (مصر: دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت).

مقدمة صفوة البيان لمعاني القرآن، حسين محمد مخلوف، (الكويت: وزارة المعارف والشؤون الإسلامية، ط٣، ١٩٨٧م).

مناهج التأليف عند العرب، محمد المصري، (جدة: دار المنارة، ط١، ١٩٩٠م).

المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (القاهرة: مطبعة المجلس، د.ط، ١٩٦٨م).

المنح الإلهية شرح مقدِّمة الجزرية، إعداد وترتيب: هاني بن محمد القاضي، (جدة: دار المجتمع، ط١، ٢٠٠١م).